



## أ.د. عبدالحسين العنبيكي \* : المalthوسية.. تعود من نافذة المناخ

عام 1766 ولد الاقتصادي توماس مالثوس في إنكلترا، وتأثر بالفلاسفة ديفيد هيوم وجان جاك روسو كما تأثر بالفكر الليبرالي وكتابات المدرسة الكلاسيكية، وعمالقتها آدم سميث وديفيد ريكاردو، حيث صاغ نظريته الشهيرة في السكان انها نظرية تشاؤمية تقول ان اعداد السكان تنمو بمتواليه هندسية فيما تنمو الموارد الطبيعية بمتواليه عدديه، الامر الذي سيجعل العالم ذات يوم يصل الى النقطة التي لا تكفي فيها تلك الموارد في اشباع افواه الناس، أي لا تكفي للوصول الى حد الكفاف، وعليه كان يعتقد ان الحروب والكوارث والابوئة هي عبارة عن ردود أفعال النظام الاقتصادي والطبيعي في دفاعه عن نفسه لأنها تصحح تلك المعدلات السكانية الجامحة باتجاه إعادة التوازن، لقد اخذت نظريته ابعاداً جدلية واسعة الا انها فندت علمياً عند حصول الثورة الصناعية، ولكنها تستعيد بريقها في زمننا هذا ومن نافذة اكثر خطراً هي نافذة المناخ وتدهور مواصفات البيئة، ويمكن تسليط الضوء عليها من خلال الاتي :

### اولاً: نبؤة مالثوس .. ليست خرافة :

حقيقة تزايد سكان العالم بصورة متسارعة بلغ اليوم بحدود 8 مليار نسمة تعيش على هذا الكوكب، وصار التزاحم على لقمة العيش امراً واقعياً، بل توقع الرجل زيادة في الحروب وآثارها التدميرية على البشرية كآلية يتم من خلالها إنقاص اعداد السكان، كما توقع حدوث الكوارث الطبيعية عندما يفقد كوكبنا القدرة على تحمل اعداد السكان المتزايدة، الامر الذي يؤدي الى تفاقم البراكين والزلازل والانزلاقات لتكون توسنوميات مميتة ( أ.د. محمد الدعي ، صحيفة الحقيقة الدولية الالكترونية ).

عليه فان نبؤة مالثوس أصبحت حقيقة وقد يكون فايروس كورونا وتحوراته المتسارعة واحدة من أسباب تصحيح الطبيعة لامراضها وسوء التعامل معها لتلقي علينا اوبئتها، فهي تعالج امراضها بأمراضنا، سواء كانت هذه الأوبئة نتاج ولادة طبيعية او انها مخلوقة نتاج ممارسات إنسانية جائرة هي الأخرى جراء تداعي أخلاقي ناجم عن تزاحم الحياة واستمرار وطيس المنافسة على العيش وتحولاتها الى منافسة غير شريفة، فلم تعد اخلاق الفرسان تحكم منظومتنا الاجتماعية والإنسانية فكيف لا تثور علينا الطبيعة بايدي أناس عديمي الإنسانية.

### ثانياً : الثورة الصناعية بددت التشاؤمات المalthوسية لعقود :



عند حصول التغيرات التكنولوجية المصاحبة للتنامي المعرفي ونتاجه المتمثل بالاختراعات والاكتشافات العلمية في اوربا الغربية خلال القرن الثامن عشر، صاحبها ثورة صناعية من خلال إحلال المكائن والآلات محل العمل اليدوي واكتشاف الأسمدة والمبيدات الحشرية التي ضاعفت من إنتاجية الأرض وصار الغذاء وفيراً، الامر الذي ازاح التشاؤمات المalthوسية جانباً وصار التفاؤل بقدرة العلم والمعرفة في تعظيم الموارد الطبيعية امراً مسلماً به، وصار متوسط دخل الفرد ينمو بشكل غير مسبوق اطلق العنان لرغبات الناس في التزاوج والتكاثر وتزايد معدلات نمو السكان، ومن جانب اخر حملت الثورة الصناعية معها تطورات كبيرة في الأجهزة الطبية والوقائية وإنتاج الادوية والمضادات ولقاحات الأوبئة، الامر الذي زاد من متوسط اعمار الافراد، فصرنا نشهد سباقين، سباق التكاثر وسباق الازاحة، الازاحة للعمل على حساب راس المال والتكنولوجيا المتطورة، الا ان هذا التسابق لم تظهر نتائجه مبكراً لان الازاحة الوظيفية للعمل كانت ترافق ظهور وظائف جديدة لم تكن قائمة، فحصل نوع من التغذية الامامية والخلفية جعلت الاعالة للأطفال المتزايدين ولكبار السن المتزايدين تمثل عبئاً على أكتاف من هم في سن العمل (15-65)، بدأ ذلك العبء قليلاً ثم تعاظم، حتى اضطرت الدول الى فرض المزيد من الضرائب والجبايات من الفئات التي في سن العمل لتقديم المزيد من أسباب العيش والاعالة للأطفال والشيوخ، الامر الذي ضغط على دخول العاملين وقلص من رفاهيتهم وزاد ساعات العمل لديهم من اجل التشبث بمستوى عيش اعتادوا عليه.

وفي المقابل كانت الحكومات التي انطلقت فيها الثورة الصناعية وخاصة بريطانيا تتوسع في هيمنتها على حساب الشعوب الضعيفة المتخلفة، الامر الذي خلق محركات اقتصادية من خلال الحروب والاحتلالات (الاستعمار) لكي تحيا شعوبهم بالرفاه والإبقاء على الشعوب المستعمرة تحيا بالفقر، واستمرت هذه المعادلة الى منتصف القرن العشرين، ادركت حينها الدول المتقدمة انها لا تستطيع الاستمرار بالإنتاج والتوسع فيه افقياً وعمودياً بأحداث المزيد من التحولات التكنولوجية الا من خلال استمرار تنامي الطلب على منتجاتها فهي تحتاج الى افواه تقضم انتاجها لتستمر العجلة، وعليه ادركت هذه البلدان ان سكان الكرة الأرضية في البلدان المتخلفة تعتاش عند حد الكفاف ولا يمكنها ان تحفز الطلب الا بتحريك اقتصاديات تلك البلدان لتكون سوقاً لانتاجها الواسع فقامت بتسهيل الإقراض وإقامة بعض المشاريع وظهور مصطلح الدول النامية او التي تسير في طريق التنمية، وقد حصل فعلاً تزايد في متوسط دخول الافراد ولان هذه البلدان تنتج اقل مما تحتاج للاشباع فقد صارت تستورد الكثير من حاجياتها من الدول المتقدمة، وكان لهذا الطلب العالمي تأثيره المباشر في تحفيز الإنتاج مجدداً وحصلت استدامة مرة أخرى للثورات الصناعية المتصاحبة مع اختراعات جديدة، فالاولى كانت باعتماد الماء والبخار في الإنتاج ثم كانت الثانية باعتماد الكهرباء في تشغيل مصانع اكبر، وفي الثالثة صار الاعتماد على الالكترونيات والتشغيل الآلي



لخطوط الإنتاج وهو ما يعرف ( بالامتته ) والآن نحن في الثورة الصناعية الرابعة التي تسخر الذكاء الاصطناعي لفصل المكونات المادية الرقمية والبيولوجية ، ولكن هذا التسارع في الثورات الصناعية الذي يحمل معه رفاهية لشعوب وسوء توزيع ثروات لصالح شعوب، حمل معه أيضا استغلال جائر للطبيعة وجعل الكرة الأرضية المكب الأكبر لنفايات تلك الثورات الصناعية الجامحة، فقد تكون مشكلة اشباع الافواه اقل خطرا مما حدثه التسابق الصناعي من تشويه للطبيعة والمناخ فصار وجود البشر مهدد وليس معدته المهدة بالخواء.

### ثالثا: عبثنا بالمناخ .. فعاد مalthus اكثر تشاؤما:

مalthus الامس كان يخشى - على البشرية من الجوع، ومalthus اليوم يخشى - عليها من الاختناق فلا تنتفس، وهذا يعني هلاك البشرية، ولتبيد مخاوف مalthus الامس انتصرت البشرية حيث تمكنا لعقود من ان نزرع وننتج لأكل، وعشنا تقدم نمو الإنتاج اسرع من نمو الافواه ودخلنا في أزمات (طلب كلي) وليس أزمات (عرض كلي) انتقلت بنا من ضغوط انكماشية الى أزمات كساد، بينما مع مalthus اليوم لازالت البشرية في صدمة، فصدمة الطلب لازالت قائمة وهنالك (تشغيل ناقص) لعناصر الإنتاج والطاقات الإنتاجية المتاحة ، ولكن العرض الوفير خلق تلوث غزير تلاعب في تركيبه عناصر البيئة، فظهرت (صدمة عرض) ليست لأسباب فنية ولا لأسباب اقتصادية، ولكن هذه المرة لأسباب مناخية تراكمت حتى انفجرت في وجه الأرض، مرة على شكل ثقب يتسع في طبقة الأوزون، ومرة على شكل ارتفاع غير مسبوق في طرح عوادم الصناعة وارتفاع ثاني أكسيد الكاربون، رافقها ارتفاع غير مسبوق في درجة حرارة الأرض، نجم عنه ذوبان للقطب الشمالي وتقلص الجزء المنجمد وارتفاع في مناسيب مياه البحار، مع مalthus اليوم صار على البشرية ان تزرع لتتنفس وليس كما كان عليها ان تزرع لتأكل، بل على البشرية ان تنتج بتقنيات غير ملوثة لتأكل.

البشرية انتجت دون رادع في عقود مضت الا انها لم تشبع كل افواه البشر - لان توزيع الدخل والثروات غير عادل، والإنتاج الواسع دون ضوابط ساهم في مزيد من سوء التوزيع حيث نمت احتكارات من رحم الرأسمالية التي تضع المنافسة في اعلى شروطها، فابتعدت بشكل اكبر عن العدالة، وصار لاداء النظام الرأسمالي ضحايا اوجب على الحكومات رعايتهم اجتماعيا فتضخمت الموازنات العامة وانتفخ شقها الاجتماعي، وفي أجواء تداعيات مalthus الامس صدرت لنا الدول المتقدمة العولمة واللبلة والحروب التي تحت السيطرة (الفوضى الخلاقة) وهي فعلا (خلاقية) لأنها تخلق طلب مستدام على منتجاتهم، انها (لعبة توم وجيري) لعبة خلق عدو ضعيف يبرعون بمطاردته بشكل مستدام وتحت السيطرة حتى تتهشم البنى التحتية وتتكسر المكائن والالات والمعدات وتهدم الأبنية، وحيث ان مطاردة العدو تحتاج الى أسلحة فان مصانع الغرب تنتج وبما ان المطاردة تحطم كل شيء فان إعادة البناء تحتاج لعمل المصانع المدنية بكل أنواعها،



قد نقتض لندشري خطوط انتاج ومصانع من الغرب لصناعات صار يجب ان تُرخلّ الينا لأنها ملوثة فتتحسن شروط بيئتهم على حساب بيئتنا، ومع ترحيل الملوثات الينا توسعت الامراض لدينا فالسرطانات تفتك بالدول الفقيرة حتماً، وهو صحيح لصالح المalthوسية الا انها أصبحت مalthوسية انتقائية، حتى الإبادة التي تفرضها الطبيعة من خلال ثوراتها صارت انتقائية بعد تطور تقنيات السيطرة عليها وتوجيهها، وفي أجواء مalthوس اليوم لازالت الترتيبات جارية لتفادي غضب الطبيعة الا انها هي الأخرى ستكون إجراءات انتقائية حتماً، كنا نداول نكتة مفادها (ان صلاة الاستسقاء في دبي ينتج عنها ان المطر يسقط في بومباي) في إشارة الى كثرة الهنود في دبي، هذه المزحة يمكن ان تتحقق في تقنيات اليوم حيث التحكم بالأمطار اذ تتجمع الغيوم في بلد وتساق الى بلد اخر لتمطر فيه، مثلما ان غضب الأعاصير يمكن ان ينحرف اذا تطورت تقنيات توجيهه الرياح.

## رابعاً: معايير باريس لتفادي غضب الطبيعة:

في 2015 تبنت 197 دولة اتفاق باريس حول تغير المناخ في المؤتمر الذي عقد في باريس ودخل الاتفاق حيز التنفيذ وكان يهدف بالأساس الى الحد من الانبعاثات الغازية المسببة للاحتباس الحراري والارتفاع المتسارع في درجة حرارة الأرض ، الا ان السنوات التي تلت مؤتمر باريس شهدت تفاقم مستويات ثاني أكسيد الكربون وتفاقم الحرائق والفيضانات وتفاقم الجنون الأمريكي مع ادراة ترامب الذي انسحب من الاتفاق وفكر بعقلية رجل الاعمال اذ زاد انتاج النفط الصخري الملوث الأكبر للبيئة ، فضلاً عن التوسع الصيني المفرط في مجال الانبعاثات متزامناً مع تطلعات لتكون القوى الاقتصادية الأولى عالمياً وليس ذلك ببعيد.

في 19 شباط عام 2021 عادت الولايات المتحدة الى اتفاق باريس بعد توجسها الخطر العالمي نتيجة ثورة الطبيعة ، وبدون استعادة حقوق الطبيعة لن نبقى على قيد الحياة ، نعم ، لقد ظهرت ثورة الطبيعة بثلاث أوجه هي :

- 1- اضطرابات المناخ ، مقارنة بفترة ما قبل الثورة الصناعية خلفت 6،5 مليون حالة وفاة مبكرة كل عام بسبب تلوث الهواء .
- 2- فقدان التنوع البيولوجي ، حيث تعرض اكثر من مليون نوع من أنواع النباتات والحيوانات من مجموع ثمانية ملايين نوع في كوكب الأرض الى خطر الانقراض .
- 3- التلوث الناتج عن الإنتاج والاستهلاك غير المستدامين ، حيث اوجد التسابق الصناعي حالة من الاستغلال الجائر للموارد الطبيعية اثرت بشكل كبيرة في البيئة ، فضلاً عن اعتماد نمط من السلوك الاستهلاكي أدى الى تعاضم النفايات والمخلفات والغازات الملوثة ، نجم عنه احتباس حراري يهدد البشرية ويزيد من عنف الأعاصير والفيضانات والحرائق وغيرها .





## شبكة الاقتصاديين العراقيين

IRAQI ECONOMISTS NETWORK  
www.iraqieconomists.net

في 2021 كانت الصورة قاتمة مما استوجب إجراءات صارمة واهداف واضحة بسقوف زمنية محددة ، ومن اهم هذه الأهداف :

- 1- تعزيز التحالف العالمي نحو هدف ( صفرية الانبعاثات الصافية ) بحلول 2050 وقد تعهد الرئيس الأمريكي بايدن بالانضمام الى هذا التحالف مما يعني تراجع انتاج النفط الصخري الذي سينعكس ايجابا في أسعار النفط الخام وانعكاس ذلك ايجاباً على الدول النفطية شريطة ان لا يستغل ذلك في مزيد من نمو السكان والمزيد من الاستهلاك البذخي الملوث للبيئة.
- 2- على الحكومات تقديم مساهمات وطنية محدودة للسنوات العشر القادمة.
- 3- ضرورة الاستثمار في الاقتصاد الاخضر—لمساعدة كوكب الأرض على التعافي ، خاصة بعد موجة الركود المصاحبة لواحدة من ثورات الطبيعة والمتمثلة بجائحة كوفيد 19 ، بغية خلق وظائف مستدامة جيدة الدخل ومستقرة لضمان ازدهار أكثر انصافاً.
- 4- التوقف عن الاستثمار في مشاريع الوقود الاحفوري التي تدمر البيئة وتدمر التنوع البيولوجي.
- 5- تحويل العبء الضريبي ليكون وعائه مقدار ما يفرز الى الفضاء من ثاني اوكسيد الكربون بدلاً من اعتماد الدخل التي يحصل عليها الافراد كوعاء ضريبي ، اي تحويل العبء الضريبي من المستهلكين الى الملوثين.
- 6- سد فجوة التمويل من خلال جعل المساهمة في التمويل كبيرة بالنسبة للبلدان التي تعاني من الاثار المناخية بشكل اكبر، كونها هي ذاتها في الغالب تكون الملوثة بشكل اكبر اكبر.

### خامساً : العراق وتغير المناخ :

صوت مجلس الوزراء في جلسة الخميس 2021/10/14 على وثيقة المساهمات المحدودة وطنياً لجمهورية العراق بشأن تغير المناخ ، وتتضمن الوثيقة الإجراءات المطلوب اتخاذها في السنوات القادمة لمختلف القطاعات العراقية بما ينسجم مع متطلبات اتفاق باريس ، ذلك ان المناخ يطرق ابوابنا بقوة في ظل أوضاع البلد الهشة والبنى التحتية المتهالكة والعبث في تزويد الطاقة والعبث في الانبعاث ، حيث كانت الاثار الكارثية واضحة في حصول زيادات مضطردة في درجات الحرارة تتراوح بين (9،0) منذ عام 2007 ومن المتوقع وصولها الى (5،3) في عام 2100 ، وهو ما يزيد من حرجة الموقف في بلد ارتفعت فيه درجة الحرارة صيفاً الى أكثر من (50) ، فضلاً عن التناقص الحاد في معدلات هطول الامطار ، حيث من المتوقع ان يصل الانخفاض الى 30% عام 2100 عن معدلاتها في الفترة (1938-1978) وفق تنبؤات الهيئة العامة للأنواء الجوية والرصد الزلزالي العراقية ، وهذا هو السبب المباشر لظهور حالات متطرفة في مناخ العراق من قبيل موجات الحر ، وموجات الجفاف ، والهطول المطري الغزير في أوقات



## شبكة الاقتصاديين العراقيين

IRAQI ECONOMISTS NETWORK  
www.iraqieconomists.net

وأماكن غير معهودة ونزول الثلوج في بغداد وظهور كتل الرياح الترابية والعواصف الغبارية وما صاحب ذلك من تزايد حالات الربو لدى الأطفال وكبار السن وانتشار الأمراض السرطانية ، كما ان تأثير المناخ ظهر جلياً في نسب المياه في دجلة والفرات ، حيث إشارات تقارير البنك الدولي الى وجود شحة في مصادر المياه المتجددة في العراق مقارنة بالاحتياج الفعلي خلال الفترة من 2000-2009 ومن المتوقع ان تصل الى نسبة 37% خلال الفترة 2020-2030 وتزداد الى 51% للفترة 2040-2050 ، الامر الذي ترك اثار وخيمة على الاقتصاد العراقي ونظم الطبيعة والتنوع البيولوجي والتوزيع الطبغرافي للسكان.

يعمل العراق على اعداد خطة التكيف الوطنية (NAP) وبتمويل من صندوق المناخ الأخضر (GCF) بالتعاون مع برنامج الأمم المتحدة للبيئة (UNEP) والتي ستكون الخطة الأساسية لضمان تحقيق المرونة والتكيف مع وضع هشاشة القطاعات الوطنية ومتطلبات المناخ الحاكمة ، اذ ان البلدان التي لا تلبى متطلبات اتفاق باريس سوف تحرم من الكثير من مزايا المجتمع الدولي الاقتصادية وبالاساس قدرتها على النفاذ الى أسواق المال العالمية ، فضلاً عن احجام المستثمرين ورجال الاعمال من إقامة مشاريعهم في تلك البلدان، وربما تتعرض لعقوبات اقتصادية أخرى ، عليه لابد من حث الخطى والعمل بكل جد من اجل اللحاق بالعالم في مجال المناخ والا فان مستقبل اجيالنا سيكون على المحك.

(\* مستشار اقتصادي في الامانة العامة لمجلس الوزراء العراقي

حقوق النشر محفوظة لشبكة الاقتصاديين العراقيين . يسمح بأعادة النشر بشرط  
الإشارة الى المصدر. 19 تشرين اول/ اكتوبر 2021

<http://iraqieconomists.net/ar/>